

الشاعر الأديب محمد بن راس العين الجزائريّ

The literary poet Algerian Mohamed bin Ras el-Ain

شارف محمد

جامعة أحمد دراية أدرار

moh.charef@univ-adrar.edu.dz

تاريخ النشر: 2021/03/29

تاريخ القبول: 2020/12/10

تاريخ الاستلام: 2020/11/24

ملخص:

محمد بن راس العين من شعراء وأدباء الجزائر في العهد العثماني، وتشير النماذج القليلة التي بين أيدينا من أشعاره ورسائله إلى مكانته ككاتب لدى الباشا، وكأديب قلما يجود الزمان بمثله، يظهر ذلك جلياً في الأسلوب الذي كتب به رسائله (الديوانية)، عندما كان كاتباً لدى الباشا، ويهدف البحث إلى عرض تلك النماذج الشعرية والتثريّة لهذا الشاعر الذي لم ينل حظاً من الدراسة، ليس لقلّة آثاره، وإنما لذهاب لضياها فيما ضاع من مؤلفات. وإذا كانت النماذج الشعرية المتبقية له مضطربة في موضوعها وبنائها الفنيّ، فإنّ رسائله ذات أهميّة بالغة، سواء من ناحية الأسلوب الفنيّ الذي صيغت به، أو من ناحية إضاءة جوانب من تاريخ الجزائر في القرن السابع عشر ميلاديّ، والخلاصة التي خرجنا بها هي أنّ ابن راس العين من شعراء الجزائر المغمورين، رغم مكانته الأدبية والعلمية في زمنه.

كلمات مفتاحية: الشاعر، راس العين، الأديب، الرسائل، الجزائريّ

Abstract:

Muhammed bin Ras el-Ain was one of the poets and writers of Algeria during the Ottoman era, and the few examples that we have from his poems and letters indicate his position as a writer for the pasha, and as a writer who rarely experienced time like him, this is evident in the manner in which he wrote his letters, when he was a writer for the pasha, and the research aims to present those poetic and prose models of this poet who did not get the chance to study. His messages are important, whether in terms of artistic style or in terms of illuminating aspects of the history of Algeria in the seventeenth century, and the conclusion that we came out with is that Ibn Ras el-Ain is an unknown poet in Algeria, despite his literary and scientific standing.

Keywords: poet; Ras al-Ain; writer; messages; Algerian.

لابدّ أنّ معرفة طريقة أديب ما في الكتابة تستوجب فحصاً شاملاً لنتاجه الأدبيّ، غير أنّ هناك بعض العقبات التي تعترض الباحث في الوصول إلى ذلك، لعلّ من أبرزها فقدان جزء هامّ من ذلك التّاج، ممّا يجعل الشّاعر أو الكاتب المراد دراسته ضمن طائفة المغمورين، على الرّغم من شهرته في زمنه، وبالتالي فليس هناك من بدّ في التّعامل مع ذلك النّثر اليسير من النّصوص المعروفة،، علّنا نخرج ببعض الملامح التي تضيء لنا بعض جوانب حياته أو أدبه. وهذا ما نجده في تعاملها مع آثار محمد ابن راس العين الجزائريّ، الذي عاش في القرن الحادي عشر الهجريّ (السّابع عشر الميلادي) رفقة طائفة من جهابذة العلم والأدب كابي العبّاس المقرّي، ومحمد المهديّ، وأحمد المانجلّاتي، وسعيد الشّباح وغيرهم، غير أنّنا لا ندري هل برع في الشّعراًم في النّثرأم في كليهما، ومن المؤكّد أنّه كان ذا سمعة في ميدان الأدب، لأنّ المقرّي وصفه بالأديب، وابن علي وصفه بالشّيخ الرّئيس، وهذا ما يدفعنا إلى طرح الإشكالية الآتية:

ما هو الأسلوب الغالب على أدب ابن راس العين؟

وللإجابة على ذلك نرجّح ميل ابن راس العين إلى فئة الكتاب لا الشعراء، لأنّ رسائله تثبت براعته في النّثر الفنّي الذي يعكس أسلوب رواد المدرسة الأندلسيّة، وهو نفسه ذو أصول أندلسيّة، أمّا شعره فأقل جودة، ولا يعكس مكانة ذات بال طالما أنّنا لا نتوقّر على نماذج وافرة منه.

وكان المنهج المتّبع في دراستنا وصفيّاً أكثر منه تحليليّاً لأنّ الغرض كان التّعريف بنتاج الشّاعر لا دراسته الفنّيّة، وهذا لقلّة الأبحاث التي تناولته بالدّراسة والتحليل آملين أن يستمرّ البحث في مناقشة وتحليل ما توقّر من نصوص الرّجل.

2. ابن راس العين ترجمته، شيوخه

1.2 ترجمة ابن راس العين¹:

لا نملك معلومات وافية عن هذا الشّاعر الأديب، الذي عاش في مدينة الجزائر في القرن الحادي عشر الهجريّ (السّابع عشر الميلاديّ) غير أنّ هناك بعض الأخبار التي يمكن

من خلالها معرفة جوانب من حياته، التي يكتنفها الغموض، فقد ذكر (سعد الله) أن (ابن راس العين) كان حيا سنة 1058، مما يعني أنه ليس له تاريخ ولادة معلوم، وكان محل تقدير الشعراء والعلماء، كما أنه تتلمذ على شيوخ جزائريين منهم أبو القاسم المظماطي، وسعيد قدورة، ومحمد المهدي جد الشاعر ابن عليّ المفتي الحنفيّ الذي جمع أشعار شعراء الفترة المذكورة (ومنها بعض أشعار وموشحات ابن راس العين)، كما لا يستبعد أن يكون من تلامذة الشيخ عليّ بن عبد الواحد الأنصاريّ، وقد تولى ابن راس العين عدّة وظائف رسميّة، منها نائب سعيد قدورة في الخطابة بالجامع الكبير.

فشاعرنا - إذن - ليس مغموراً وإن بدا كذلك، بدليل أنّه كان معروفاً لدى كلّ من ابن عليّ الشاعر الذي جمع مختارات من شعر القرن الحادي عشر، ولولا اختصار زميله ابن عمّار لها لربّما عثرنا ضمنها على نماذج من شعر ابن راس العين، كما ترجم له (ديفولكس) بعض وثائق الأحبّاس التي ترجمها إلى الفرنسيّة، ونشرها في التّأليف الذي سمّاه: (المؤسّسات الدّينيّة في الجزائر) والذي نشر قبل ذلك في أعداد من (المجلّة الإفريقيّة)²، وقد ذكر هذا الأخير أن المفتي "سعيد قدورة" كان له أربعة أئمّة يخلفونه في إمامة صلاة الجمعة، وكانت مرتّباتهم من ماله الخاصّ، وكان ابن راس العين من هؤلاء، فضلاً عن معاصرته لابن المفتي حيث جاء في تقييدات هذا الأخير قوله عن سعيد قدورة: «وكان له أربع خلفاوات ينوبون عنه بالتداول إن تأخّر عن الخطبة أو صلاة الظّهر (على العادة التي سنّها أسلافه) فمنهم العالم الفقيه بن رأس العين [كذا] تلميذ سيدي عليّ الأنصاريّ، وسيدي مزيان، وسيدي محمد بن قرواش، وآخر لم يبق اسمه في حافظتي، وأرزاقهم من عنده لا من عند الأوقاف، وكان صاحب ثروة، وكانت له أرض حرّاة، ولا ينفق على نفسه من دخل أوقاف الجامع الأعظم»³.

ومن المعلوم أنّ قدورة قد تولى الإفتاء بالجزائر سنة 1028 هـ، وعلى كلّ فإنّ ابن راس العين قد شارك في الحياة الثّقافيّة بمدينة الجزائر، غير أنّنا نعجب تعاطيه شعر المجون والتّباعة، وهو الذي ذكر له صاحب درّة الحجال ما ذكر، إضافة إلى مشاركته في الحياة الدّينيّة مثلما ذكر ديفولكس.

سعيد قدورة⁴: سعيد بن ابراهيم قدورة، من عائلة معروفة ذات أصول تونسية، تولّت الإفتاء المالكيّ بالجامع الكبير، أكثر من قرن، ولد ونشأ بالجزائر، أخذ عن أعلام، منهم: العلامة سعيد المقرّي، وأخذ عنه أعلام منهم ولداه أحمد وعلال، ويحيى الشاوي⁵، ولي الإفتاء من سنة 1028 إلى سنة 1006 هـ وهي سنة وفاته، وقد أشاد بدوره الروحيّ في مدينة الجزائر صاحب التقييدات الذي أشار إلى أنّ سعيداً المذكور استطاع أن يفرض نفسه، وينال الحظوة لدى الحكّام الأتراك وأعيان البلد، رغم الوشايات والحساد، كما استطاع أن يستخلف ولده محمّداً بالفتوى والخطابة والتدريس، وقد عزل سعيد قدورة غير أنّه استطاع العودة إلى منصبه، كما عزل ابنه محمّد عام 1090 هـ [1679] وعاد هو الآخر (دون أن ينوبه أحد)، واستمرّ في وظيفته إلى عام 1107 هـ [1695 م] حيث جاء بعده أخوه أحمد إلى عام 1118 هـ [1706 م]⁶.

له مؤلّفات،، منها: شرح صغرى السنوسي، وشرح جوهرة التوحيد للّقاني،، وشرح السّلم المرونق

محمّد أبو القاسم المظماطيّ: يعتبر المظماطيّ شيخاً لسعيد قدورة، قد تولّى فتوى المالكيّة قبله، ذكره ابن المفتي في تقييداته، والمعروف عن المظماطيّ أنّه ذهب إلى الحجّ مع أبي عليّ آهلول المجاجي⁷ سنة 993، وكانت له دروس بالجامع الكبير، فمن الرّاجح أن يكون ابن راس العين من الذين تتلمذوا على يديه، أو حضروا دروسه بالجامع المذكور.

عليّ بن عبد الواحد الأنصاري⁸: السّجلماسيّ، من علماء المغرب الذين استوطنوا الجزائر، مشارك في الحياة العلمية بالجزائر في القرن السابع عشر، رحّب به يوسف باشا، ذكر المحبّي في خلاصة الأثر أثناء ترجمته لعيسى الثّعالي أن هذا الأخير لازمه مدة تزيد على عشر سنين، كما لازمه علي المانجلاتي أربع عشرة سنة.

محمد المهدي⁹: كان عالماً فقيهاً، وتوفي سنة 1072 هـ – 1662. وهو الجد الأدنى لابن عليّ، وقد ذكره ابن عمّار قصيدتين: الأولى بعث بها الجدّ (محمد المهديّ) إلى علماء القسطنطينية شاكياً لهم من أمر نزل به، ومطلع القصيدة هو¹⁰:

أَرْجُو الْغِيَاثَ بِنَاصِرِي الْإِسْلَامِ وَمُؤَيِّدِيهِ بِالْسُنِّ الْأَقْلَامِ

أمّا الثانية فبعث بها الجدّ إلى ابنه محمد بن محمد وهو والد ابن عليّ، متشوقاً إليه، دون ذكر المكان الذي قيلت فيه، ومنها¹¹:

يَا وَلِيَّ الْإِلَهِ يَا ابْنَ عَلِيٍّ أَنْتَ شَيْخِي وَوَالِدِي وَوَلِيٍّ
بِكَ أَنْسِي وَأَنْتَ قُرَّةُ عَيْنِي وَمُرَادِي بِكُلِّ فِعْلٍ رَضِيٍّ
كَيْفَ تَلْعَبُ فِي الْجِنَانِ وَلَمْ تَدْرِبَائِي فِي وَحْشِكُمْ فِي صَلِيٍّ

كما ذكره بيتين أجاب ردّ بهما على بيتين لمحمد القوجيلي، وذلك في شأن سعيد قدورة، والذي لم يكن على وفاق مع القوجيلي المذكور، لأسباب لا نعلمها. والبيتان هما:

3. شعره ورسائله:

1.3 شعره:

مما يؤسف له أن لا نعثر على نماذج من شعر ابن راس العين، طالما أن المختارات التي بين أيدينا (والتي اختارها المفتي ابن عمّار من مختارات المفتي ابن عليّ) لم تذكره سوى قصيدتين، الأولى تخميس والثانية موشح، وحسب كلام (ابن القاضي) الآتي ذكره، فإن ابن راس العين لم يكن مغموراً ولا مجهولاً، بل هو «رجل جواب، رحالة من أهل الجزائر له أمداح في النبيّ -صلى الله عليه وسلّم-، وديوان شعر، ومقامات، وغير ذلك من نظمه:

يَا بَنَ رَأْسِ الْعَيْنِ صَبْرًا قَدْ أُعِيدَ الْحُلُومُ مَرًّا
وَمَضَتْ تِلْكَ اللَّيَالِي وَأُعِيدَ الْوَصْلُ هَجْرًا¹²

ونحن نميل إلى ما ذكره ابن القاضي المكناسي الذي كان معاصراً لابن راس العين، من أن له مدائح نبوية وأشعاراً ومقامات، ولا ندري إن كانت المقامات المذكورة هي الرسائل أم أنها نصوص أخرى؟ كما نميل إلى القول بأن ابن عليّ قد ذكره قصائد غير

التّخميس والموشّح، ولا نستبعد أن يكون ابن عمّار نفسه قد ذكر بعضاً منها في كتابه المفقود: (لواء النّصر في فضلاء العصر)، لأنّه من المؤكّد وجود مساجلات بينه وبين الشاعر محمد سعيد الشّبّاح¹³

ومن الغريب أن يشتهر ابن راس العين بشعر المجون، نجد ذلك في قصيدته التي يخاطب بها التباغة كما يخاطب الخمر، وينادي النادل أن يسقيه إياها في غليون ممتاز لأن شربها في الليل في جلسات السمر ينعش النفس والفؤاد، وتاريخ هذا الموشّح (حسب ما ذكره سعد الله) سنة 1027هـ، منه قوله¹⁴:

أَسْقِنِيهَا تَبَاغَةً تُجَلَا	فِي حُلَى السَّبْبِي
شُرْبُهَا فِي الدُّجَا مَعَ الإِخْوَانِ	جَالِبِ الأُنْسِ
أَسْقِنِيهَا وَدَعْ كَلَامَ اللّاحِ	فَهَوَ عِنْدِي مُحَالٌ
لَا تُعْطِلْ شَرَابَهَا يَا صَاحِ	فَهَيَّ عِنْدِي حَلَالٌ
شَمْعُهَا يُغْنِي عَنِ الصَّبّاحِ	فِي ظَلَامِ اللَّيَالِ
شُرْبُهَا لَيْسَ يُفْسِدُ العَقْلَا	لِذَوِي الحِسِّ
كُلُّ مَنْ دَمَّ شُرْبُهَا جَهْلًا	فَهُوَ فِي بَخْسِ

وهناك بيتان ذكرهما المقرّي في رحلته، بقوله: «ولمّا حللت محروسة الجزائر، خرجنا يوم الخميس 25 ذي الحجّة سنة 1027 هـ صحبة جماعة من الأعيان منهم مفتي الحنفيّة الخطيب المولى (محمود بن حسين بن قرمان الشّهير)، وكان ذلك برأس تافورة، فقال لنا الأديب ابن راس العين، يصلح هنا نظم، فقلت:

خَرَجْنَا مَعَ المُوَلَّى إِلَى رَاسِ تَافُورَةَ فَصَارَتْ بِهِ تِلْكَ المَعَاهِدُ مَعْمُورَةَ

فقال ابن راس العين:

وَمَا أَحَدٌ إِلَّا اعْتَرَتْهُ مَسْرَةٌ وَكَانَتْ	قُلُوبُ القَوْمِ بِالجَمْعِ مَسْرُورَةَ
وَجَالَسْنَا فِيهِ أَنَاسٌ أَفَاضِلٌ فَقُلْتُ	مَاتِرُهُمْ بَيْنَ الأَكَابِرِ مَشْهُورَةَ ¹⁵

وكما قلنا سابقاً، فإنّ ابن عمّار ذكر له تخميساً وموشّحاً، فالأول قوله¹⁶:

رِذَاءُ الوُفَا قِدمًا لَيْسَتْ فِرَانِي وَمَا دِنْتُ خِلاَ بِالنِّدِي دَانِي

وَلِي صَاحِبٌ قَدْ كُنْتُ هُوَ وَكَانَنِي
 فَلَمَّا جَفَانِي مَنْ أُحِبُّ وَخَانَنِي
 حَفِظْتُ لَهُ الْوَدَّ الَّذِي كَانَ ضِيْعًا
 عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَائِلٌ عَنْ أَصْلِهِ¹⁷ فَطَالَعِ أَصْلَ الْمَرْءِ يَبْدُو بِفِعْلِهِ
 وَقُلْ لِلَّذِي أَصْحَى الْفُؤَادَ بَعْدَ لِهِ
 وَلَكِنِّي أَبْقَيْتُ لِلصُّلْحِ مَوْضِعًا
 فَكَمْ قَدْ غَضَضْتُ الطَّرْفَ اسْتُرْشِينَهُ
 مِرَارًا وَأُبْدِي لِلْخَلِيقَةِ زَيْنَهُ
 فَمَا كَانَ إِلَّا الْعَدْرَ حَقَّقَ مَيْنَهُ
 وَقَدْ كَانَ حَسَنَ الْعَهْدِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
 أَكِيدًا وَلَكِنِّي رَعَيْتُ وَمَا رَعَى
 أُخَيِّي إِلَى أَنْ يَجْلُبَ الدَّهْرُ حَيْنَنَا
 وَمَا زِلْتُ أَرْجُو اللَّهَ يَذْهَبُ بَيْنَنَا
 خَلِيلَيْنِ كُنَّا قَدْ قَضَى اللَّهُ بَيْنَنَا
 سَعَى بَيْنَنَا الْوَأْثِي فَفَرَّقَ بَيْنَنَا
 لَكَ الدَّنْبُ يَا مَنْ خَانَنِي لَا لِمَنْ سَعَى

ومن الثاني قوله¹⁸ :

النَّجْحُ لَاحَتْ لَهُ عَلَامَهُ
 وَلِلْفَلَاحِ بَدَا عَلَامُ
 وَمَنْ يَلْمُكَ فَقُلْ عَلَى مَه
 تَلُومٌ فَالِدَّهْرُ لِي غَلَامُ
 مَا أَحْسَنَ الْيُمْنَ وَالْأَمَانِي
 وَأَمْلَحَ السُّؤْلَ وَالْمُرَادُ
 وَأَقْبَحَ الْعَدْرَ لِلزَّمَانِ
 وَأَفْضَحَ الْهَجْرَ وَالْبِعَادُ
 وَأَزَيْنَ الْقِرْعَ لِلْمَثَانِي
 بِكَفِّ مَنْ يَمْنَحُ الْوِدَادُ

ومن ذلك قوله¹⁹ :

طَبِيٌّ غَدَا شَاهِرًا حُسَامَهُ
 كَذِي الْفَقَارِ لِيذِي الْغَرَامِ
 مُذْ لَاحَ لِي مِعْطَفٌ وَقَامَهُ
 نَادَيْتُ يَا قَوْمَنَا الْجَمَامِ
 غَزَا فُؤَادِي بِمُقْلَتَيْهِ
 وَصَادَ قَلْبِي بِقَدِّهِ
 وَزَادَ وَجْدِي بِوَجْنَتَيْهِ
 وَقَلَّ صَبْرِي بِنَهْدِهِ
 وَطَارَ قَلْبِي بِمِعْطَفِيهِ
 كَمَا سَبَاهُ بِرَنْدِهِ

وهذا الموشح المذكور يتكوّن من سبعة أديوار وقفل، كلّ دور به خمسة أبيات، وما يهمنّا هنا هو الموضوع أو المناسبة التي قيل فيها، فابن عمّار الذي ذكره في مختاراته يذكر أنّ ابن عليّ وصفه بقوله: «وللشيخ الرئيس أبي عليّ محمد بن راس العين يمدح بعض أشياخه بهذا التّوشيح البديع»²⁰.

ووجه الغرابة هنا أنّ الموشح المذكور فيه من التشبيب أكثر ممّا فيه من المدح، والمعروف أنّ التشبيب هو إنشاد الشعر على وجه الغزل. ولا ندري هل وظّف ابن راس التشبيب كمقدّمة على العادة المرسومة في الشّعر، وأطال هو فيها، أم أنّ الموشح مبتور الآخر، وما نرجّحه هنا أنّه خلط بين الغرضين (التّشبيب والمدح) إذ لا نكاد نجد مدحاً لهذا الشيخ إلّا في الدّور الأخير الذي يقول فيه²¹:

شَيْخٌ يُرَاعِي الْوَرَى ذِمَامَهُ إِذْ صَارَ مَا بَيْنَهُمْ إِمَامَ
وَكُلُّهُمْ قَدْ عَدَا غَلَامَهُ يُقْبِلُ النَّعْلَ وَالْقِشَامَ
هَذَا قَرِيضِي أَتَاكَ ذُلًّا فَاقْبَلْهُ وَلْتَغْفِرِ الرَّكْلَ
شَبَّبْتُ فِيهِ وَكُنْتُ أَوْلَى مِنْ هَزِهِ الْمُدْحُ وَالْغَزْلُ

كما نجد قطعة شعريّة من تأليف ابن راس العين ضمّنها تهنئته للسّيّد محمد بن سليمان ابن محمد الشّريف (نقيب أشرف الجزائر) بمناسبة زواجه، وكان ذلك في شعبان 1057هـ، منها قوله²²:

بِحَقِّكَ وَحَقِّكَ يَا ابْنَ الْهَاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ وَيَا مَنْ سَعَى عَنْ بَدْرِ أَفْقٍ وَفَرَقِدِ
لَطَّلَعْتُكَ الْغُرَاءَ وَالشَّمْسُ وَالضُّحَى أَلْدُ لِعَيْنِي مِنْ مَنَاكِمْ مَسْهَدِ
وَلَكِنْ صُرُوفُ الدَّهْرِ مَا بَرِحَتْ عَلَيَّ فُوَادِي الْمُعْتَى الصَّبِّ تَعْلُو وَتَعْتَدِي
فَمَنْظُومٌ شَمْلُ الْوَصْلِ قَدْ نُثِرَتْ وَلَمْ تُرَاعِ حُقُوقاً لِلْإِحَاءِ الْمُؤَكِّدِ
وَمَا صَدَّنِي عَنْكُمْ وَحَقِّكُمْ سِوَى أَبِ وَأُمٍّ وَقِلَّةٍ مُسْعِدِي

2.3 رسائله:

لم يكن ابن راس العين شاعراً فحسب، فقد عرف ناثراً أيضاً، وقد ذكر ابن القاضي أنّ له مقامات، كما أنّ بعض رسائله موجود، وفيه دليل على براعته في الكتابة

الأدبية رغم مجونه في الشعر، فقد «تولّى محمد بن راس العين هذا عدّة مناصب سامية في بلاط باشا الجزائر، وكان له اتصال بالخلافة العثمانية، وصلنا مجموع من رسائله جلّها نقلت من خطّهن ومؤرّخة حوالي منتصف القرن الحادي عشر، وبالضبط ما بين 1050 و1060ن»²³

وقد وجدنا له رسالتين على الأقل: الأولى تتعلّق بما جرى لسكان تلمسان مع الباشا المذكور، إذ أرسلوا وفداً يمثلهم، شاكين من تصرّفات المفتي المالكي، الذي اتّهموه بالاستبداد في تصرّفاتة كناظر للأعباس، حيث كان كاتبه في ذلك الوقت ابن راس العين، الذي دبّج رسالة باسم الباشا تفيد بالنظر في الموضوع، والاستماع إلى الطّرفين للوصول إلى حلّ لهذا الإشكال الحاصل، ونحن هنا لا تهّمنا الأحداث بقدر ما يهّمنا أسلوب الكاتب، الذي ينمّ عن ثقافة ودراية بأساليب البلاغة، التي يكون قد ورثها عن المدرسة الأندلسية، التي ينتسب إليها، وقد جاء في مستهلّ الرسالة قوله:

«الحمد لله الذي أسبغ روح إحساننا على الأنام، فكان الحظّ الوافر منه لعلمائنا الأئمة الأعلام، وأفاض بحر عدلنا الوافر على الأوّل منهم والآخر، فله الحمد سبحانه على ما أولانا إذ فضّلنا على كثير من عباده وولّانا، وجعل عمودي بيت دولتنا السعيدة عدلاً وإحساناً، وجمع فيها القلوب، وألّف بين المتنافرين من الصّبا والجنوب، المتقاطعون في أيامها الرشيدة إخواناً، وصلى الله على سيّدنا ومولانا محمد المصطفى الكريم...»²⁴

ففي هذه المقدّمة يتبيّن لنا أسلوب الكاتب في الاعتماد على الفواصل القصيرة ذوات الأسجاع (الأنام - الأعلام)، (الوافر - الآخر)، (أولانا - ولّانا - إحسانا - إخوانا)، (القلوب - الجنوب). وممّا يلاحظ أيضاً تضمينها لبعض الآيات القرآنية تناصّباً واقتباساً، فمن الأوّل قوله: (إذ فضّلنا على كثير من عباده وولّانا)، ومن الثّاني ذكره للآية 34 من سورة فصلّت، التي تحثّ على معاملة المسيء بالإحسان، قال تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم﴾

وبعد الدِّيابة التي تضمّنت عبارات الحمد والتّصليّة والوعظ، ينتقل الكاتب إلى الموضوع، الذي من أجله كتب رسالته، وهو كما ذكرنا من توترّ العلاقة بين أهل تلمسان والمفتي المالكيّ، ولنترك الكلمة ابن راس العين:

«لمّا أن أنفذ الله سبحانه القدر، وأصمّ الأذن وأعمى البصر، طال اللّسان، وقطعت الأرسان، وحال في ميادين العلاج، العناد واللّجاج ... من علماء تلمسان وموجه مسألة علميّة، وإنّما الأعمال بالنّيّة، وكلّ على هدى، ولم يتعدّ العدا فتواطأ الجمّ الغفير، وكان لله تعالى القوّة والحول، والعالم الصّدر، العلم الحبر بذا الزّمان سليل بني عدنان، مفتي المدينة ذو العروة المتينة، والوقار والسّكينة، أحمد المعين، قد انفرد بالقول الآخر وتعيّن، فأبوا أن يذعنوا لقوله الواقع، فاتّسع الخرق على الرّاقع، فعند ذلك حرّكته الهمة العليّة، وهزّته الأريحيّة الهاشميّة، وصالت عليه النّسبة الأحمدية، والقسمة المحمّديّة»²⁵.

يبدو - من خلال رسالة ابن راس العين - أنّ الباشا قد تبين قبل أن ينفذ حكمه، وبدا له أنّ هناك نيّة مبيتة لإبعاد المفتي المذكور (الذي لا نعرف اسمه) وهذا ما نلمسه في عبارات مثل: طال اللّسان، وقطعت الأرسان، وحال في ميادين العلاج، العناد واللّجاج، فطول اللّسان يرتبط غالباً بمن يتكلّم فيما لا يعنيه، أو فيمن يتكلّم في أعراض النّاس، غير أنّ السّبب الحقيقيّ للخلاف قضية علميّة، رأى هذا الجمع الغفير أنّ فتوى الشّيخ بشأنها لا توافق هواهم، وهو الذي جعلهم يحاولون إبعاده عليهم يظفرون بفتوى من غيره تجيز لهم مبتغاهم.

وما يلاحظ على عبارات ابن راس العين تلك الأسجاع الخفيفة، التي تحمل دلالات عميقة، خصوصاً لدى القارئ الذي يحاول فهم الحادثة، دونما تكلف أو صنعة،، فكأنّ صاحبها ذو مراس في مجال الكتابة وأساليب البيان، يسحره بكلماته التي لا تقبل التّأويل، والرّسالة طويلة نوعاً ما، وفيها من التّماذج الشّيء الكثير، وليس بالإمكان دراستها هنا، لأنّ غرضنا هو التعريف بالكاتب وليس تحليل رسالته، وعلى كلّ فمّمّا جاء فيها قوله:

«فقام وقعد، وبرق ورعد، وقالوا وقال، وجالوا في ذلك الميدان العريض وجال، وأظهر كلّ منهم لصحبه قبيح الفعال، وحذا له التّعال بالتّعال،، وضاق عليهم الخناق،

وقامت بينهم على ساق، فمن يحلّ هذا المشتبك، ومن يعاني هذا الأمر المرتبك، ففزعوا للحضرة الزكيّة،، والأبواب العليّة، والأعتاب الشريفة،، والمواقف المنيفة، بالجزائر المحميّة بالله تعالى»²⁶

أمّا الرّسالة الثّانية من رسائل ابن راس العين، فهي تلك التي بعث بها إلى الآستانة، يصف فيها حالة الجزائر العاصمة حوالي سنة 1057هـ، كما يشير فيها إلى ثورة أحمد الصّخري²⁷ تلك التي عمّت بايلك الشّرق في عهد مراد باي (1622-1647)، وكان المرسل إليه هو محمّد الزّابع (1642 – 1693م)، لأنّه يذكره في رسالته ويصفه بالسّلطان محمّد خان، وعلى كلّ فإنّ أسلوبها لا يختلف عن أسلوب سابقها، جزالة الأسلوب، وبلاغة التّصوير لدى صاحبها، وهي بذلك وثيقة أدبيّة وتاريخيّة هامّة في موضوعها، أدبيّة لكونها تشتمل على نماذج من سحر البيان، وعدوبة الألفاظ، وسلاسة اللّغة، دونما تكلف، وتاريخيّة لأنّها توضّح الأسباب الحقيقيّة التي كانت وراء اندلاع ثورة ابن الصّخريّ (رئيس قبيلة الدّواودة)، كما تشير إلى أنّ كثيراً من الباشوات بالجزائر يخفون الحقائق عن الباب العالي،، يقول الكاتب في مستهلّ رسالته – بعد المقدّمة :-

«أدام الله رفع بنودكم، ونصر أعوانكم وجنودكم، وخفق راياتكم، وظهور آياتكم، أشرق ليايكم، فبلدتنا هذه كانت قبل اليوم محطّ رحال، ومخطّ رجال، ومناخ جمال، ومعدن جمال، ومرسى مراكب، ومقرّ مواكب، ومجرى سوائق ... ذات بساتين وأنهار، وأصوات وأطيّار، وغدران وأشجار، وأصال وأسحار، وأعياد ومواسم، وثغور وبواسم، ونفحات ونواسم، وجهاد وملاحم، وكرات ومزاحم، مشايخها تقاة، وكهولها ثقات، وولدانها طغاة، وعساكرها غزاة، وفرسانها عقبان، وأفراسها عقيان، تسبق الأرواح²⁸، فتخف على الأرواح، لا يقف لبأسهم واقف، ولا يذعن لرجعيتهم راجف، ما بغى عليهم باغية إلّا خصموه، ولا طاغية إلّا حاربوه، فهزموه وقصموه، والآن ضعفت الرعيّة، فعظمت البليّة، وحلّت الرزيّة، وضاق المعاش، لما كثرت الأوباش»²⁹

ففي هذه الأوصاف من رقّة اللّغة وجزالة الأسلوب ما يبرز قدرة الوصف والتّصوير الفنّي لدى الكاتب، وطول النّفس الثّريّ، لأنّ الرّسالة كسابقها طويلة نوعاً ما، ومع ذلك

فإن ابن راس العين قد وصف ما جرى أحسن وصف، (بغض النظر عن حقيقة الأحداث التي سردها عن الثورة المذكورة)، ومن أمثلة ذلك المحسنات البديعية الموجودة في (بنودكم - جنودكم)، (راياتكم - آياتكم)، (محطّ رحال - مخطّ رحال)، (جمال - جمال)، (مراكب - مواكب)، (أنهار - أطيّار)، (أشجار - أسحار)، (مواسم - بواسم - نواسم)، (ملاحم - مزاحم)، (تقاة - ثقات - طغاة - غزاة)، (عقبان - عقيان)، (الأرواح - الأرواح)، (واقف - راجف).

وعن ثورة ابن الصّخري يقول:

«ونغص العيش طاغية من طواغي البادية، فعظم الخطب، وحلّت الداهية، وأضاق الوطن، بعد أن ضرب النَّاس جميعاً بعطن، وجعل ينهب الرعيّة نهباً، حتّى ملأ قلوبهم فزعاً ورعباً، ويسلمهم الزرع والضرع، ولم يُبق لهم من نفع، فأشكل أمر البلد، وأوشك أهلها أن يفرّوا بالأهل والولد، وحال الحال، وكان إصلاحها أن يكون من المحال»³⁰

4. خاتمة:

ليس من اليسير الإلمام بظروف شاعر أو كاتب ما، طالما أنّ نتاجه الأدبيّ شبه مفقود، وهذا ما ينطبق على الشاعر محمد بن راس العين، الذي لولا إشارة ابن القاضي في درته، والموشح الذي ذكره ابن عمّار في مختاراته، والرسالتان اللتان أوردهما البوعبدليّ في مؤلفه ما استطعنا أن نعرف طريقة الرّجل في أشعاره ورسائله، وهو، على ما يبدو نائر أكثر منه شاعراً، إذ الغالب على شعره المعروف الخلاعة والمجون والتّشبيب، ونحن هنا نحكم على ما وصلنا من أشعاره، لا على مفقودها، وهذه أهمّ نتائج البحث:

كان ابن راس العين متقلّداً - على ما يبدو - لبعض الوظائف الرّسميّة، ودليلنا على ذلك ما وصفه به ابن عليّ بقوله: الشّيخ الرّئيس، ولا ندري ما هي تلك الوظائف، غير أنّه قد اشتغل بالكتابة لدى الباشا في منتصف القرن الحادي عشر الهجريّ. يبدو ابن راس العين في شعره مستهتراً ماجناً، لأنّه يصف الدّخان والتّباعة، في عصر ظهرت فيه مؤلّفات تحرّمها كما في (محدّد السنّان في نحور إخوان الدّخان) للفقّون.

كما يتّضح لنا ميله إلى الغزل والتّشبيب في شعره، خاصّة في الموشح الوحيد الذي ذكره له ابن عمّار من مختارات شيخه ابن عليّ، فقد غلب التّشبيب على مدح الشّيخ الذي لا نعرف اسمه.

تظهر قوّة التّعبير الفّيّ في نثر ابن راس العين، من خلال الرّسائل المنشورة له، والتي تجعله في مصافّ الأدباء المتأثرين بالمذهب الأندلسيّ في الكتابة على طريقة ابن الخطيب والفتح بن خاقان والمقرّيّ.

5. قائمة الإحالات:

¹ عن محمّد بن راس العين، ينظر: معجم أعلام العلماء العرب والمسلمين، 74-73/10، وابن المفتي، تقييدات، ص: 97 (نقلا عن ديفولكس) - المقرّي، أبو العباس، رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق، ص: 72، ابن القاضي، أحمد بن محمّد، درة الحجال في أسماء الرّجال، 163/2، البوعبدليّ، المهدي، وسعيدوني ناصر الدّين، الجزائر في التّاريخ، ص: 139، سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج 2/267.

² ديفولكس، المجلة الإفريقيّة

DEVOLKLS ALBERT : Notes historiques sur les mosquées, REVUE AFRICAINE VOLUM 05 , 1861, p 59. ET
Les édifices religieux de l'ancien alger, 1870).

³ ابن المفتي، التقييدات، في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها جمع فارس كعوان ، دار الحكمة العالمة سطيف ط1، 2009، ص: 97-98.

⁴ عن سعيد قدورة ينظر: عبد القادر نور الدّين، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التّركي، دار الحضارة، الجزائر عاصمة الثّقافة العربيّة، 2007، ص: 279. بالإضافة إلى: تعريف الخلف، 62/1 - خلاصة الأثر، 240 - اليواقيت الثّمينة، 122 - تقييدات ابن المفتي (قسم العلماء) - تاريخ الجزائر الثّقافي، 357/1.

⁵ (1030 - 1096 هـ / 1621 - 1685 م)، يحيى أبو زكريّا النّابلي الشّاوي المليانيّ الجزائريّ المالكي، ولد بمليانة ونشأ بالجزائر، قدم مصر ودمشق والقسطنطينيّة، من شيوخه: محمّد بن محمّد بهلول، سعيد قدورة، عيسى الثّعالي وغيرهم، يقول المحبّي: "شيخنا الأستاذ الذي ختمت بعصره أعصر الأعلام وأصبحت عوارفه كالأطواق في أحياد الليالي والأيام ... وهو في الفقه إمامه، ومن فمه تؤخذ أحكامه، وأمّا الأصول فهو فرع من علومه، والمنطق مقدّمة من مقدّمات مفهومه، وإن أردت النّحو فلا كلام فيه لأحد سواه" من مؤلفاته: ارتقاء السّيادة في علم أصول النّحو - التّحف الرّئانيّة في جواب الأسئلة اللّمداينيّة، خلاصة الأثر: 486/4. مقدّمة كتاب ارتقاء السّيادة، تاريخ الجزائر الثّقافي، 102/2.

⁶ ينظر تفصيل ذلك في تقييدات ابن المفتي، قسم العلماء، ص 95 وما بعدها.

⁷ الشّيخ محمد بن عليّ أهلول المجاجي نسبة إلى بلدته مجاجة (ولد سنة 945 هـ / 1538 م - توفي سنة 1008 هـ / 1599 م، بحيث يعود نسب الشّيخ إلى شرفاء الأندلس من بني حمود الحسني (ينتسبون إلى آل البيت) الذين سكنوا

غرناطة و كانوا ملوكا بها، و قد أسس الشيخ محمد بن علي زاويته الشهيرة بمجاجة خلال القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي و اشتهرت هذه الأخيرة بتدريس القرآن الكريم و مختلف العلوم الإسلامية من فقه و تفسير و نحو⁸ ترجمته في: المحبي: خلاصة الأثر: 173/3، ابن زاكور: 47، تاريخ الجزائر الثقافي: 370/1.

⁹ نور الدين، عبد القادر، صفحات، ص: 198.

¹⁰ ابن عمار، مختارات مجهولة من الشعر العربي، ص: 114، وقد ذكر ابن عمار أنه اكتفى بالأبيات التسعة المذكورة في مختارات، نظراً لطول القصيدة.

¹¹ مختارات مجهولة، ص: 115. والمذكور من القصيدة 22 بيتاً.

¹² ابن القاضي، أحمد بن محمد، درة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحمد، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط1، 1981، 163/2.

¹³ المعلومات عنه ضئيلة، بيد أنه من أصدقاء الشاعر ابن راس العين، إذ غالباً ما ذكرنا معا، وحتى في مختارات ابن عمار، لا توجد سوى قصيدة واحدة له في الاستغاثة بجد "ابن علي"، يقول فيها:

العالمُ العَلامَةُ القُطْبُ الَّذِي ضُرِبَتْ بِحُسْنِ صَبِيحِهِ الأَمثالُ
يَا أَيُّهَا المُوَلَّى الَّذِي بِكَمالِهِ تَزَكُّو لِأَرْبابِ التُّبَى الأَعْمالُ
وَسَيِّئُ غَوْثِ العَرَبِ مِنْ مَجَاجَةِ وَا فَالِكَ مِنْ رَبِّ العُلا إِقبالُ
إِنِّي بِبَابِكَ وَا قِفْتُ أُسْتَنْجِزُ الـ مُوعِدَ الَّذِي لَمْ تَسْتَطِعْهُ رِجالُ

¹⁴ سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2/267.

¹⁵ المقرئ، أبو العباس، رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر، مكتبة الرشد للطباعة والنشر، سيدي بلعباس، 2004، ص: 72.

¹⁶ ابن عمار، مختارات مجهولة، ص: 121. وموسوعة الشعر الجزائري، دار الهدى، عين مليلة، 2002، 398/1. والتخميس المذكور لقصيدة جمال الدين أبي الحسين، يحيى بن عيسى ابن إبراهيم المعروف بابن مطروح، المولود في أسيوط، بصعيد مصر، يوم الإثنين 8 رجب 592م / 7 يوليو 1196م، وبها نشأ، اتصل مع صديق له بأمرأ الأيوبيين "الملك الأشرف، والملك المسعود، ثم بالملك الصالح، نجم الدين أيوب، توفي في مستهل شعبان سنة 650 هـ، / أكتوبر 1252م، ترجمته في سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 422/22، وأبيات ابن مطروح التي ختمها ابن راس العين هي:

ولمَّا جفاني من أحبِّ وخاني حفظت له الودَّ الَّذِي كان ضيِّعا
ولو شئتُ قابلت الصِّدودَ بمثلها ولكنني أبقيت للصِّالحِ موضعا
وقد كان ما قد كان بيبي وبينه أكيدا، ولكنني رعيت وما رعى
سعى بيننا الواشي ففرق بيننا لك الدَّنْبُ يا من خاني، لا لمن سعى

ابن مطروح، الديوان، تح: حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2004، ص: 147 (رقم 168).
¹⁷ يشير إلى بيت طرفة:

عَنِ المَرءِ لا تَسأَلُ وَسَلْ عَنِ قَرينَهُ فَكُلُّ قَرينِ بِالمُقارِنِ يَقتَدِي

¹⁸ ابن عمار، مختارات مجهولة، ص: 144.

- ¹⁹ المصدر نفسه، ص: 145.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص: 143.
- ²¹ المصدر نفسه، ص: 145.
- ²² البوعبدلي المهدي، جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني، ص: 63.
- ²³ المرجع نفسه، ص 42.
- ²⁴ البوعبدلي، المهدي، وسعيدوني ناصر الدين، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص: 139. وكذلك جوانب من الحياة الثقافية، للبوعبدلي، ج3، ص: 44.
- ²⁵ البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ص: 139-140، وجوانب من الحياة الثقافية، ص: 44-45.
- ²⁶ - المرجعان السابقان، ص 140 - جوانب 45.
- ²⁷ وخلصتها أنّ شيخ العرب، محمد بن الصّخريّ بن بوعكّاز العلويّ الهلاليّ، قائد الدّواودة والحنانشة، قد زار مراد باي حاكم قسنطينة، سنة 1047هـ. في مكان خارج المدينة، ولكنّ الباي اتهمه بالخروج عن الطّاعة، وأمّسكه سجيناً عنده، وبعد مشاورات بشأنه قتله هو وابنته، وبعد عام ثار أحمد أخ القتيل، وقاد جموع العرب والحنانشة والدّواودة، وغيرهم ضدّ العثمانيين، في قسنطينة وغيرها، ومن المعارك التي انتصر فيها الثّوار معركة كجال التي هرب خلالها مراد باي، وقد جاء يوسف باي إلى قسنطينة بنفسه لمواجهتها ولكّتها استمرّت، حيث سجّل الشّعر الشّعبيّ ذلك، فهذا شاعر قد ذمّ التّرك، وأشاد بقومه وبوعلجيّة بنت بوعزيز بوعكّاز، في قصيدته التي مطلعها:
- قصّة طرّاد شاو الرّمان يا حظّار [كذا] مع التّرك الخدّاعين يا حسرة
- عن الثّورة ينظر؛ (المجلّة الإفريقيّة، ع 18، 1874، ص: 214. مقدّمة يحيى بوعزيز لكتاب، العنتري، محمد صالح، فريدة منسيّة في حال دخول التّرك بلد قسنطينة، ص: 36. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، 1/216،
- ²⁸ جمع ربح.
- ²⁹ الرّاشدي، ابن سحنون، الثّغر الجمانيّ في ابتسام الثّغر الوهرانيّ، تح: المهدي البوعبدليّ، ضمن الأعمال الكاملة، ج: عبد الرّحمن دويب، عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2013، مقدّمة المحقّق، 62/7. وجوانب من الحياة الثّقافيّة بالجزائر، ص 56.
- ³⁰ - البوعبدليّ، مرجع سابق، ص: 57.